الطريق إلى التسويـــة فى سوريـــا

(الدبلوماسى، العدد 263 - 264، يناير/ فبراير 2018)

د. نورهان الشيخ

فـى الرابـع عشـر مـن ديسـمبر أعلـن المبعـوث الأممـي إلـى سـوريا، سـتيفان دي ميسـتورا، انتهـاء الجولـة الثامنـة مـن المباحثـات السـورية فـى جنيـف دون تحقيـق الأهـداف المرجـوة، إلا إن فشـل جولـة مفاوضـات فـى تحقيـق تقـدم ملمـوس لا يقلـل مـن الفـرص المتاحة والإنجازات التى تحققت فى الملف السورى على مدى العامين الماضيين.

إن عـودة سـريعة بالـذاكرة إلـى الجولـة الأولـى مـن مباحثـات جنيـف تؤكـد التقـدم الكبيـر الـذى تـم، وهنـاك مجموعـة مـن العوامـل التـى تهيـأ ظـروف مواتيـه لـدفع عمليـة التسـوية. أولهـا، زوال شـبح "أفغنـة سـوريا"، وتحولهـا إلـى حاضـنة لعشـرات التنظيمـات الارهابيـة المتنـاحرة مـع الدولـة السـورية، ومـع بعضـها الـبعض، وبـؤرة تشـع الارهـاب وعـدم الاسـتقرار فـى الشـرق الأوسـط والعـالم علـى الـنمط الأفغـانى. فعلـى مـدى مـا يقـرب مـن خمـس سـنوات انهـارت قـوى الدولـة السـورية، وبـدت تحتضـر فـى أنفاسـها الأخيـرة، ومثـل بـدء الضـربات الجويـة الروسـية فـى سـبتمبر 2015 "قبلـة الحيـاة" لسـوريا والشـرق الأوسـط كلـه الـذى كـاد يتحـول إلـى "دولـة خلافـة" مظلمـة فكـراً وممارسـة كلـون علمهـا، يشـع منهـا العنـف والتطـرف والارهـاب فـى كـل اتجـاه. وقـد أعلنـت وزارة الـدفاع الروسـية فـى 6 ديسـمبر التحريـر الكامـل لأراضـي سـوريا مـن مسـلحي "داعـش"، وهـو حصـاد جهـد ضـخم مـن التخطـيط والعمـل الميـدانى والضـربات الجويـة الدقيقـة قامـت بـه موسـكو علـى مـدى أكثر من عامين.

فخـلال تلـك الفتـرة، قـام الطيـران الروسـي بـأكثر مـن 92 ألـف ضـربة جويـة فـي سـوريا، تمكـن خلالهـا مـن القضـاء علـى مـا يقـرب مـن 54 ألـف إرهـابى، وتـدمير حـوالى 100 ألـف هـدفا وموقعـا للإرهـابيين تشـمل مركـز قيـادة ومعسـكرات تـدريب وغيرهـا. إلـى جانـب تخلـيص العـالم مـن زعـيم التنظـيم، رأس الأفعـى، أبـو بكـر البغـدادى، وعـدد كبيـر مـن قيـادات التنظـيم، مـن بينهـا مئـات الشيشـانيين أمثـال أبـو عمـر الشيشـاني، وعـلاء الـدين الشيشـاني، وصـلاح الـدين الشيشـاني، وغيـرهم مـن قيـادات داعـش الـذين كانـت تمثـل عـودتهم لروسـيا تهديـد مباشـر لأمنهـا القـومى، إلـى جانـب آلاف أخـرين مـن مختلـف أنحـاء العـالم. إن روسـيا لـم تنقـذ سـوريا وحـدها، ولكنهـا أنقـذت الشـرق الأوسـط كلـه مـن

خطـر الارهـاب، وهزيمـة "داعـش" الحقيقـة إنطلقـت مـن سـوريا بفضـل العمليـة الروسـية الضخمة.

فـى هـذا السـياق، أعلـن الـرئيس بـوتين خـلال زيارتـه لقاعـدة حميمـيم يـوم 11 ديسـمبر، والتـى كانـت الأولـى مـن نوعهـا، "عـودة جـزء كبيـر مـن القـوة العسـكرية الروسـية الموجـودة فـي سـوريا إلـى روسـيا"، فـى إشـارة إلـى انتهـاء زخـم العمليـات العسـكرية مـن ناحيـة، ولإعطـاء رسـالة إيجابيـة للمجتمعـين فـى جنيـف8 فـى محاولـة لـدفع عمليـة التسـوية. وأن الجهـد العسـكرى الضـخم يتممـه التسـوية السـلمية فـى سـوريا، وبـدون تسـوية لا يمكـن ضـمان الحفـاظ علـى الانجـازات التـى تحققـت عسـكرياً فـى مواجهـة داعـش وغيرها من التنظيمات الارهابية.

وقـد كـان لإطـلاق مسـار "أسـتانا" فـى ينـاير 2017 دور حيـوى فـى اسـتعادة الاستقرار فـى سـوريا وتثبيـت النجاحـات التـى تمـت ضـد الارهـاب، كمـا كانـت المـرة الأولـى التـى تشـارك فيهـا المعارضـة المسـلحة فـى مفاوضـات مباشـرة مـع النظـام السـورى، ومثـل ذلـك فـى حـد ذاتـه إنجـاز ضـخم. وعلـى مـدى سـبع جـولات مـن المفاوضـات الصـعبة فـى أسـتانا حتـى أكتـوبر، اسـتطاعت روسـيا بالتعـاون مـع الـدول الضـامنة الأخـرى، إيـران وتركيـا، أن تنقـل سـوريا مـن حالـة الحـرب إلـى الاسـتقرار مـن خـلال منـاطق خفـض التصـعيد، وجهـود مركـز المصـالحة الروسـى فـى حميمـيم، الـذى يبـذل دور حيـوى فـى دعـم المصـالحة فـى سـوريا ونـزع سـلاح الأفـراد والميليشـات وإعـادة دمجهـا فـى المجتمـع كمواطنين.

ثانيهـا، توحيـد المعارضـة السـورية لأول مـرة مـن خـلال مـؤتمر الريـاض2 فـى نـوفمبر الماضـى، والتوجـه لجنيـف (8) بوفـد واحـد يمثـل كـل فصـائل المعارضـة. ويعتبـر هـذا فـى حـد ذاتـه، إنجـاز لـم يكـن متصـور فـى ضـوء التناقضـات الحـادة التـى كانـت تمـوج بهـا المعارضـة. ولاشـك أن توحيـد منصـات المعارضـة الثلاثـة، موسـكو، الريـاض، القـاهرة، فـى وفـد واحـد خطـوة هامـة وضـرورية نحـو التسـوية السـلمية ودعـم الاسـتقرار الكامـل فـى سوريا.

ثالثهـا، التوافـق الروسـى الأمريكـى الـذى عكسـه إعـلان بـوتين ترامـب علـى هـامش قمـة منتـدى التعـاون الاقتصـادي لـدول آسـيا والمحـيط الهـادي (إبيـك) فـى فيتنـام، والـذى جـاء متسـقاً مـع قـرار مجلـس الأمـن 2254 لعـام 2015، والـذى يتضـمن مجموعـة مـن المبـادئ والمحـددات التـى سـتحكم عمليـة التسـوية السـلمية، أهمهـا علمانيـة الدولـة السـورية

وسلامة ووحدة أراضيها، فلا تقسيم ولا فيدرالية، وتجنب تكرار التجربة العراقية. أنه لا مكان للجماعات الارهابية فى مستقبل سوريا، وسيستمر ملاحقتها وتصفيتها للنهاية. أما المسلحين السوريين فأمامهم فرصة لإعادة الاندماج فى المجتمع وتسليم أسلحتهم من خلال مركز المصالحة الوطنية فى حميميم.

ولكن رغم العوامل السابقة والتى تدعو إلى التفاؤل النسبى بشأن عملية التسوية فى سوريا، يبدو الطريق إلى الأخيرة ليس ممهداً بالكامل، وهناك تحديات عدة تعترض مسيرة الاستقرار الكامل فى سوريا. أولها، إن الحرب على الارهاب لم تنتهى بعد فى سوريا، ومازالت هناك العديد من التنظيمات الارهابية التى اتجهت لحرب العصابات واستنزاف القدرات، إلى جانب انتشار الخلايا الارهابية والذئاب المنفردة فى سوريا والمنطقة.

ثانيها، استمرار الخلاف بين المعارضة السورية، رغم الوفد الموحد، خاصة حول حتمية رحيل الأسد من عدمه، وغياب الرؤية المشتركة فيما يتعلق بالملامح العامة للدستور السورى الجديد وللدولة السورية العلمانية الديمقراطية المأمولة، وكذلك حول الجدول الزمنى للانتخابات البرلمانية والرئاسية والتى لابد وأن تحظى بإشراف أممى ضماناً للشرعية وعدم التشكيك فى نتائجها من جانب أى طرف سورى أو خارجى. كما يثور التساؤل بشأن وضع الأكراد خاصة مع رفض الفيدرالية وأيضاً فيما يتعلق ببعض ما يتم تداوله حول تطبيق النموذج اللبنانى فى سوريا بأن يكون رئيس الدولة علوي، رئيس الوزراء سني، رئيس البرلمان– مسيحي أو شيعي وهكذا؛ وهل يمثل ذلك حلاً أم يكرس الانقسامات ويقوض الاستقرار. ولدى المعارضة السورية فرصة سانحة للتغيير وعليها استغلال هذه الفرصة أو سيتم تجاوزها وتجاهلها خاصة وإنها لم تعد تملك شئ على الأرض حيث يظل بشار الأسد ونظامه هو السلطة الشرعية.

فقد بدا بشار الأسد خلال لقاءه مع الرئيس بوتين، فى سوتشى فى نوفمبر، بحالة جيدة وعكست ابتسامته تفاؤلا بالمستقبل، وبدوره المستقبلى فى سوريا. وعناقة للرئيس بوتين حمل كثير من المعانى، وكان به امتنان عميق لما قدمته روسيا لسوريا ودورها فى انقاذها والشرق الأوسط كله من ظلام دامث. ومن الواضح أن الأسد سوف يستمر الفاعل الرئيسى لفترة ليست بالقصيرة نظراً للتغير فى توازنات القوى على الأرض فى ضوء النجاحات التى حققها الجيش السورى بمساعدة روسيا، واستمرار أنقسام المعارضة واتجاه منصتى موسكو والقاهرة للقبول بدور الأسد ولو مرحلياً. فضلاً عن

عدم قدرة المعارضة على طرح قيادة تمثل منافس حقيقى للأسد الذى ما زال يتمتع بقبول بين قطاع واسع من السوريين. وقد سبقت زيارة الرئيس الأسد ولقاءه بالرئيس بوتين القمة الثلاثية بين روسيا وتركيا وإيران حول التسوية فى سوريا، وحملت رسالة بأن موسكو لا تعبر عن موقفها فقط وإنما تتحدث أيضاً بلسان سوريا. إن قمة بوتين الأسد تضمنت تفويضاً ضمنياً من السلطة فى سوريا للرئيس بوتين بالاتفاق على الإجراءات التى تكفل إعادة الاستقرار الكامل لسوريا.

ومن القضايا الهامة التى تمثل تحدياً أيضاً مستقبل القوات الأمريكية فى سوريا، التى تعتبرها الحكومة السورية احتلال ليس له أى سند قانونى أو شرعى. وقد أعلنت وزارة الدفاع الأمريكية فى 5 ديسمبر استمرار الاحتفاظ بوجود عسكري في سوريا بحجة "منع عودة الجماعات الإرهابية إلى هذا البلد." وكذلك الحال بالنسبة للقوات التركية التى تعتبرها الحكومة السورية احتلال أيضاً. إلى جانب اعتراض اسرائيل على الوجود الإيرانى فى سوريا والغارات الجوية التي تشنها الطائرات الإسرائيلية على سوريا من آن لأخر منتهكة السيادة السورية.

يضاف إلى ما سبق تحدى إعادة البناء وتعمير ما خربته الحرب، ومن المنتظر أن تلعب الصين وإيران إلى جانب روسيا دوراً هاماً فى هذا الخصوص. وسوف يكون التحرك الروسى القادم فى سوريا على قدمين، الأولى عملية سياسية تحافظ على الانجازات التى تحققت وتدعم السلام والاستقرار فى سوريا. والثانية بدء عملية إعادة الاعمار فى المناطق المحررة.

لقد انطلق قطار التسوية فى سوريا وعلى الجميع تقديم تنازلات للحاق به، وإلا تم تجاوزهم إلى غير رجعة، فمازالت الحكومة السورية لا تبدى المرونة المطلوبة لدفع المفاوضات، ورغم اجتماع الرياض 2 والبيان الختامى الذى تمخض عنه، لا تبدو المعارضة السورية مستعدة بعد للمستقبل، ولم تبلور رؤية جادة ومتكاملة لمستقبل سوريا ودورها في سوريا الجديدة، وينعقد الأمل على مؤتمر الحوار السورى فى سوتشى للتقريب بين الطرفين والتمهيد لتسوية نهائية فى جنيف9.